منهج تيسير تعليمية النحو العربي لدى أبي بكر الزّبيدي الإشبيلي.
كتاب الواضح أنموذجا.

Curriculum to facilitate the teaching of Arabic grammar by Abu Bakr Al-Zubaidi Al-Esbaily. Book EL WADIH a model.

الباحث: العيد مقدور/ جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.
didoumec5014@gmail.com
أ.د. حاج علي عبد القادر /جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.
adr306@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/12/10 تاريخ القبول: 2020/05/11 تاريخ النشر: 2020/08/13

ملخص: علم النّحو أب العلوم الشرعيّة والأصل الذي تفرّعت عنه البقيّة، لما له من أهميّة في تقويم اللّسان من الوقوع في اللّحن، خاصّة إذا تعلّق الأمر بالقرآن الكريم، كما له أسبقيّة في استكشاف أسرار العربيّة، وأفضليّة في فهم التّراكيب وإيضاح المعاني. ولعلّ الاهتمام بعلم النّحو جعل العلماء يعملون جاهدين على تيسيره للتّرغيب فيه نظرا لما عرفه من تعقيد وتعسير. وعلى غرار كلّ المدارس النّحويّة عرفت المدرسة الأندلسيّة علماء متميّزين كان لهم باعٌ في خدمة النّحو. ومن بين نحّاة الأندلس الّذين انصبّت جهودهم على تيسير النّحو وتبسيط طريقة تعليمه أبو بكر الزُّبيدي في كتابه "الواضح". وعليه سنتناول في بحثنا هذا: نبذة حول الزُّبيدي وآثاره، كتاب "الواضح": قيمته العلمية وبعده التّعليمي، محتوى الكتاب وأبوابه، خصائص كتاب الواضح للزُّبَيْدِي ومنهجه في تيسير تعليم النّحو.

كلمات مفتاحية: منهج، الزُّبيدي، الواضح، النّحو، التّيسير، التّعليميّة

Abstract: The grammatical science is the father of forensic sciences and the origin of the other branches because of its importance in correcting the tongue from falling into the melody, especially when it comes to the Holy Qur'an. It also has precedence in exploring the mysteries of Arabic and the preference for understanding the structures and clarifying meanings. With grammar, scientists have worked hard to make it easier for them to be intrigued because of the complexity and sophistication they know. Like all Grammar schools, the Andalusian school was known by distinguished scholars who had sold it in the service of grammar. Among the Andalusian grammarians who focused their efforts on facilitating the method and simplifying the way of teaching Abu Bakr al-Zubaidi in his book "EL WADIH". In this research, we will discuss the following: An overview of Al-Zubaidi and its effects, the book "El-WADIH": its scientific value and its educational dimension, the content of the book and its doors .

Keywords **:** curriculum, Zubaidi, clear, grammar, facilitation, educational

المؤلف المرسل: مقدور العيد الإيميل: didoumec5014@gmail.com

المنارة للاستشارات

1.مقدمة:

كان النّحو العربيّ لونا من ألوان النّشاط الذّهنيِّ الّذي فرضته طبيعة الحياة وتطوّر المجتمع، وخاصّة حينما أحسّ العرب في منتصف القرن الأول الهجري بخطرٍ يهدّدُ لغتهم وقرآنهم بسبب ما نشأ من اللّحن على ألسنة الأعاجم والموالي، الّذين دخلوا الإسلام بعد الفتوحات، وخاصّة عند قراءتهم للقرآن. فكان النّحو العربي ثمرةً من ثمرات الدّراسات القرآنيّة التي مرّت بمراحلَ متعددةٍ، تُوّجَت بنشأة النّحو للحفاظ على القرآن الكريم والحرف العربي المشرّف، فقد كان الحرص كلّ الحرص على أداء نصوص الذّكر الحكيم أداءً فصيحا سليما إلى أبعد حدود السّلامة والفصاحة، ضِفْ إلى ذلك رقيَّ العقل العربي ونمو طاقته الذّهنيّة نموًّا أعدّه للنّهوض برصد الظّواهر اللّغويّة، وتسجيل القواعد وتنظيم الأقيسة، إيذانا بنشأة هذا العلم الجديد وهو النّحو العربي.

وبعد الفتوحات الإسلاميّة التي قام بها المسلمون لنشر الإسلام امتدّ الإسلام بمشيئة الرحمن في الأمصار، فكان ممّا استقرّ فيها الإسلام بلاد الأندلس. وضروريٌّ أن يعمل المسلمون –إضافة إلى نشر الإسلام وتعاليمه طبعا–على نشرِ مختلفِ علومهم وفي مُقَدَّمِها علوم اللّغة العربيّة والّتي أشرفُها علمُ النّحو، فهو أب العلوم الشّرعية والأصل الّذي تفرّعت عنه البقيّة.

وقد دخل النّحوُ الأندلسَ بعدَ أنِ استقرّت مختلف العلوم العربيّة، على أيدي علماء رحلوا من المشرق إليها وآخرين دخلوا منها إلى المشرق، اكتسبوا من خلالها علوم العربيّة فدَرَسوا ودَرَّسوا ثمّ عادوا إلى موطنهم لنشر ما تعلّموه. هذا ما مكّن نحاة الأندلس من خلال مؤلفاتهم المميّزة ومن خلال الآراء الّتي تفرّدوا بها من إنشاء مدرسة نحويّة أبدع فيها الكثير من العلماء. هذه المدرسة على اختلاف منهج وتصوّر نحاتها جمعتهم غاية واحدة هي خدمة النّحو فكان لكلٍّ طريقةً عُرِف بها ميّزته عن علماء عصره، وهذا الأمر الّذي وقف حائلا دون فهم العامّة النّحو بحجّة تعقيده وتعسير النّحاة له فنفروا منه، فأدرك العلماء بأنّه قد حان الوقت للعمل على تيسير النّحو.

المنارة للاستشارات

ومن العلماء الّذين شاعوا في ذلك العصر بأسلوبه الجذّاب في تناول موضوعات النّحو، وبساطة طريقته في سبيل تيسره أبو بكر الزُّبَيدي صاحب كتاب "الواضح" هذا الكتاب الذي من خلاله ذاع صيت الزُّبيدي فكان مَوْئلَ كلّ من استعسر عليه فهم النّحو.

ولمعالجة هذا الموضوع من جميع جوانبه صِيغت إشكالية البحث كالآتي: ما أبرز خصائص المنهج الّذي اتّبعه الزّبيديّ لتيسير تعليميّة النحو وتبسيطه للمتعلّمين والّتي ميّزته عن مصنّفات علماء عصره؟

2. الزبيدي: حياته وآثاره:

1.2: نبذة حول الزبيدي:

هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر[1] أبو بكر الزُّبَيدي الإشبيلي الأندلسي النحوي واللغوي، والزُّبيدي -بضم الزاي وفتح الباء -نسبة إلى زُبيد، أبُ قبيلةٍ كبيرة باليمن وهم رهط عمرو بن معد يكرب[2]. والإشبيلي نسبة إلى إشبيلية مسقط رأسه بالأندلس.

كان واحد عصره في علم النّحو وحفظ اللّغة، تلقّى العلوم عن شيوخه فقد تتلمذ على يد مشاهير عصره فسمع من قاسم بن اصبغ وسعيد بن فحلون وأحمد بن سعيد بن حزم، وقيّد اللّغة والأشعار عن أبي علي البغدادي المعروف بالقالي لـــــمّـــــا دخل الأندلس.[3] وأخذ العربيّة أيضا عن أبي عبد الله الربّاحي[4] فأخذ عن القالي معظم معارفه. وفي إشبيلية اشتهر الزُّبيدي وترامت شهرته لتصل إلى قرطبة، فبلغ صيته الحاكم المستنصر بالله الذي استدعاه لتأديب ابنه وولي عهده هشام المؤيّد بالله[5]. وقد وقع الاختيار على الزُّبيدي نظرا للمكانة العلميّة الّتي وصل إليها. الأمر الذي جعله يَحظى بالعناية فنال جاها عظيما ورياسة، حتى أنّ المستنصر لم يأذن له بالعودة إلى وطنه. وقد تقلّد الزُّبيدي مناصبَ رفيعةً في الدّولة فقدّمه أمير المؤمنين إلى أحكام القضاء ثمّ إلى خطّة الشّرطة[6].

ويظهر من كلّ هذا أن الرجل قد بَسَطت له الدّنيا جناحها فكان ذلك عونا له للبحث والتّنقيب واكتشاف أسرار العربيّة وعلومها.

المنارة للاستشارات

2.2: آثار الزبيدي:

ممّا لا شك فيه أن الزّبيدي كان نابغةَ زمانِه وواحدَ عصرِه وبهذا فضروريٌّ أن يُخلّفَ مصنّفات قيِّمة، وتشير المصادر الّتي بين أيدينا إلى مؤلفاته فقد وُضِعت بعضُها في أسمى المراتب. يقول الحميدي: ألّف في النّحو كتابا سمّاه"الواضح"، واختصر كتاب العين اختصارا حسنا وجمع في "الأبنية" وفي "لحن العامّة" وفي "أخبار النّحويين" كتبا مشهورة، وفي كلّ نوع من الأدب[7].

كما تعرض ابن خلكان لمؤلفاته فقال فيه: "وله كتبٌ تدلُّ على وفورِ علمه منها:"مختصر كتاب العين "وكتاب "طبقات النّحويين واللّغويين بالمشرق والأندلس" من زمن أبي الأسود الدّؤلي إلى زمن شيخه أبي عبد الله النحوي الربّاحي، وله كتاب الرّد على ابن مسرة وأهل مقالته، سمّاه "هتك ستور الملحدين" وكتاب"لحن العامّة" وكتاب "الواضح" في العربيّة وهو مفيد جدّا. وكتاب "الأبنيّة في النّحو" ليس لأحد مثله[8].

هذا وقد أشار ياقوت الحموي مستندا على المصادر السّالفة الذّكر إلى آثار الزُّبيدي قائلا: "أبو بكر الزّبيدي من الأئمة في اللّغة العربيّة، ألّف في النّحو كتابا سمّاه كتاب الواضح، واختصر كتاب العين اختصارا حسنا، وله في أبنيّة سيبويه، وله كتاب ما يلحن فيه عوام الأندلس، وكتاب طبقات النّحويين...وبلغني أنّ أهل الغرب يتنافسون في كتبه خصوصا كتابه الذي اختصره من كتاب العين لأنّه أتمّه باختصاره، وأوضح مشكله، وزاد فيه ما عساه كان مفتقرا إليه، وله غير ما ذكرناه من التّصانيف في كلّ نوع من الأدب"[9].

إضافة إلى تبحّر الزُّبيدي في اللغة العربية نثرها كان له حظّ في شِعرها، فقد أجمعت أكثر المصادر التي بين أيدينا على أنّ الزُّبيدي كان شاعرا كثير الشّعر[10]. غير أنّ هذه المصادر لم تقف على إذا ما جمع شعره في ديوان أم لا، والمعروف أنّه لم يصلنا من شعره إلا القليل نجده مبثوثا في كتب السير والتّراجم.

ولعلّ الآثار التي خلّفها صاحبنا أثبتت بحقٍّ مكانته العلمية التي "تجاوزت الأندلس في حياته إلى ديار الإسلام حيث مجال العربية الرّحيب"[11]، وفي هذا الصّدد يقول ابن العماد الحنبلي: كان صاحب التّرجمة (أبو بكر الزّبيدي) شيخ الأندلس بل وغيرها في العربيّة. قال ابن خلكان: "هو

المنارة للاستشارات

نزيل قرطبة، وكان واحد عصره في علم النّحو، وحفظ اللّغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنّوادر..." كما صنّف صاحبُ الإنباه الزُّبيديَّ ضِمن أئمة اللغة والعربيّة[13].

وكما كانت مؤلفاته تنتشر في أنحاء المعمورة وهو على قيد الحياة كانت كفيلة بأن تخلّد اسمه بعد أن وافاه أجله "قريبا من الثمانين والثلاثمائة"[14]

3. كتاب "الواضح" : قيمته العلمية وبعده التّعليمي :

1.3 لمحة حول الكتاب وقيمته العلميّة:

كتاب" الواضح "لأبي بكر الزّبيدي (ت 379 ه) هو كتابٌ كان حصيلة التّجربة التّعليميّة لصاحبه، وقد ألّفه حين اختاره المستنصر بالله صاحب الأندلس لتأديب ولده وولي عهده هشام المؤيّد بالله. وقد تأثر الزبيدي بمنهج الزّجاجي، فلم يقتصر كتابه" الواضح "على الموضوعات النّحوية، بل نظر إلى اللّغة باعتبارها وحدة متكاملة، فعنِيَ بموضوعات النّحو والصّرف، إلى جانب عنايته المتميزة بالصّوتيات[15]، فكان هذا الكتاب ذي غايات تعليميّة يتحرّى السّهولة واليسر. وقد عُدّ هذا المصنّف من الكتب التعليميّة لأنّ طريقة ترتيب أبوابه جِدُّ محكمة، وهو كتاب يبتعد عن التّعريفات والخلافات بين النّحويين، كما أنّ صاحبه قد حرص على تكوين الحِسّ اللّغويّ السّليم، مع ما يتَّسِم به من أسلوب لطيفٍ يقوم مشاركة القارئ معه عن طريق ما يُشبه الحوار بينهما بقوله:" فإن قلتَ :... فقلْ"[16].

ويُعدّ كتاب الواضح من أفضل الكتب التي أُلّفت لأغراض تعليميّة، وذلك لأن صاحبه قد وضعه بعد أن عمل مؤدِّبا لولي عهد الأندلس هشام المؤيّد، وقد اختار ابن حزم كتاب الواضح في العربية لكي يَفِيَ بحاجة المتعلّم، أو بعبارة أخرى لكي يُصبح كتابا مدرسيّا، فقيمة الكتاب " تكمن في هذا المنهج العلميّ الذي يتبنّاه الزُّبَيْدِي في معالجة قضايا النّحو لغايات تعليميّة من أجل تيسيره، وتسهيل قواعده، وجعلها سائغة أمام المتعلّم"[17]

وعلى الرّغم من اختلاف العلماء حول تسميّة الكتاب بالواضح في العربيّة، أو الواضح في النّحو، فإنّ مَنْ ترجم للزُّبيدي أثبت له هذا الكتاب، وعدَّه من الكتب الميسّرة، والمسهّلة لعلم النّحو.

2.3 محتوى الكتاب وأبوابه:

المنارة للاستشارات

بدأ الزُّبَيْدِي كتابه بالحديث عن أقسام الكلام، وهو الباب الأول من أبواب النّحو العربيِّ ثمَّ عرض أبواب الإعراب والنّحو جميعا حيث بيَّن مواضع الإعراب في الكلمة، وإعراب ما يعرف بالأسماء الخمسة، وإعراب المثنّى والجمع، ثم تناول الأفعال فوضّح أقسامها وهي: الماضي، والدائم، والمستقبل، وعرج للأفعال المتعدّية لمفعول واحدٍ والمتعدية لمفعولين وتناول الجملة الفعلية البسيطة، ثم تناول الخفض والإضافة، وغيرها من أبواب النحو العربيّ. وعرض أيضا لأبواب الصّرف المختلفة كالتّصغير وموضوعات الجمع والتّذكير والتّأنيث، والنّسب والمقصور والممدود، والحروف الزائدة، وأبنية الأسماء والتّعريف والهجاء ومختلف موضوعات الصّرف.

وكذلك عرض إلى علم العروض والقافيّة، ووجوه القوافي في الإنشاد وجعل القافية هي حرف الرّوي، وعرض لحروف القافيّة من وصلٍ، وردفٍ، ونفاذٍ، وتأسيسٍ، ودخيلٍ. وقد نَظر الزُّبَيْدِي في كتابه الواضح إلى اللّغة باعتبارها وحدة متكاملة، فهي في الصّرف، والنّحو، والصّوتيات، ومخارج الحروف، والشّعر، والوقف، والإدغام، وهو بهذا متأثر بمنهج الزّجاجي الذي يَعنى بوحدة اللّغة في كلّ موضوعاتها.

3.3 خصائص كتاب الواضح للزُّبَيْدِي ومنهجه في تيسير تعليمية النّحو العربي:

كان لكتاب الواضح للزُّبيدي عددٌ من الخصائص والسّمات التي جعلته يحتلّ مكانا مميّزا بين كتب النّحو الميسّرة والتّعليميّة، وهذه الخصائص كانت تصبّ في جعله كتابا ميسّرا سهلا، ومن أبرز هذه الخصائص والسّمات الآتي:

1: سهولة اللّغة الّتي صِيغ بها الكتاب:

إنّ القارئ لكتاب الزُّبَيْدِي لا يكاد يجد صعوبةً في فهم محتواه ومضمونه، وذلك لأنه أُلِّفَ لصغار الطّلاب والمبتدئين الّذين ليسوا بحاجة إلى لغة سيبويه أو المبرّد أو غيرهما من العلماء، فالزُّبَيْدِي فضَّل اللّغة السّهلة البسيطة لكي تكون أداةً سهلةً لَهُ مِن أجل إيصال هدفه المنشود، وهو تعليم الطّلّاب الصّغار والمبتدئين أهمّ قواعد اللّغة العربيّة، ولعلّه يُخَلّص اللّغة العربيّة ونحوها من التّلاعب في اللّغة الّذي أتقنه وتفنّن فيه العلماء الأقدمون.

المنارة للاستشارات

ولعلّ ما انماز به الزُّبَيْدِي في كتابه هو اتّباعه طريقةً سهلة بسيطة في تبسيط القاعدة النّحويّة، أشبه ما تكون إلى الكتب المدرسيّة اليوم، التي كلّ هدفها هو التّسهيل والتّبسيط لقواعد النّحو " فهو يبدأ بوصف أسلوب استعمال القاعدة، ثم يُوردُ مثالا واضحًا عليها، ويأخذ في إعرابه إعرابا موجزًا[18] وإذا أخذت – مثلا–حديثه عن جمع التّكسير فهو يوضّحه بشكلٍ وافٍ كافٍ فهو يقول: «واعلم أنّ الجمع على ضربين: جمع التّكسير وجمع السّلامة. فجمع التّكسير هو الّذي يتغيّر فيه بناء الواحد عمّا كان عليه من حركةٍ وسكونٍ، كقولك: فلس وأفلس وفلوس، وكلب وأكْلب وكِلاب"[19]

2 التّرتيب الواضح السهل المحدد لأبواب الكتاب:

لقد بَدَا الزُّبَيْدِي مخالفا للأنماط السّابقة في تبويب كتابه، حيث إنّه حرص على ألّا يبنيَ شرحه لبابٍ يحتاج في جزئياته إلى أبوابَ أُخرى إلّا إذا كان قد شرح الباب السّابق، ووضَّح الجزئيّة المطلوبة، ومثال ذلك أنّه شرح الفعل والفاعل (الجملة الفعليّة) وثنّى بالخفض قبل أن يشرح المبتدأ والخبر، وذلك لأنّ من أشكال الخبر، الجملة الفعليّة وشبه الجملة، فاختار أن يوضِّح هذين المصطلحين قبل أن يوضِّح الخبر وهذا الأمر ما فعله إلّا لتلبية حاجات الطّلاب، ولتحقيق الهدف من كتابه وهو التّيسير على الطّلاب في تعلّم النّحو العربيّ.

3 استخدام أسلوب الحوار:

أو إنْ شِئت قل مشاركة القارئ في الحوار وهو ما يُعرف اليوم بالتّعلّم الذّاتيّ أو بالتّعليم دون معلّم، إذْ أنّنا لاحظنا هذا الأسلوب كثيرا في نصوص الكتاب فنجد مثلا قوله:" ألا ترى أن الباء تَحْسُن في مثل هذه الأخبار، تقول: ما زيدٌ بمنطلقٍ :"فإنْ قِيل لك أينَ الرّفع في قولك رجل؟، فَقُل :في اللّام[21]، فإنْ قيل لك أين النّصب في قولك رجلا؟، فقل :في اللّام[22].

إنّ استخدام المؤلّف لهذه الكلمات (ألا ترى، تقول، فقل، قيل) وغيرها تُشعر القارئ بأنّه مشاركٌ في الدّرس، وفي مناقشة القضيّة النّحويّة المطروقة، وتُخْرجه من دائرة التّلقّي الّتي تَسِم المؤلّفات النّحويّة القديمة، ولا تُجْدي أيَّ هدفٍ تعليميٍّ بل تُشعر الطّالب بالملل، فجاء استخدام الزُّبَيْدِي لهذا الأسلوب تعليميًّا خالصا، أراد منه تسهيل النّحو العربيّ وتحبيبه إلى الطّلبة المبتدئين.

4: الخُلوُّ من الشّواهد النّحويّة والشّعريّة، والاعتماد على الشّواهد التّركيبيّة:

المنارة للاستشارات

"حَرَص المُصنِّف على سَوْقِ أمثلةٍ سهلةٍ في تركيبها ومعجم مفرداتها، وابتعد عن الشّواهد الّتي تَغصُّ بها الكتب الأخرى فلم يُوْرِد من الشّواهد إلّا بيتا وشطرَ بيتٍ[23]"، ولعلّ السّبب في عدم إيراد الشّواهد الفصيحة يعود إلى أنّ الزُّبَيْدِي قد تناول المسائل الأوليّة وابتعد عن مسائل التّنازع والخلاف[24]، ولذلك لا داعيَ لذِكر تلك الشّواهد، بل اكتفى بالأمثلة التّركيبيّة السّهلة الّتي يستطيع طالب علم النّحو فهمها بسهولة ويُسْرٍ.

5 الإكثار من إعراب الأمثلة التي يُورِدها إعرابا مجملا مختصرا:

القارئ لكتاب الزُّبَيْدِي لا يجد عناءً في إدراك هذه الميزة فهي جليّةٌ واضحة في معظم أبواب الكتاب، فما أشبه هذه الطّريقة بطريقة الكتب المدرسيّة اليوم الّتي تحتوي على إعراب الأمثلة، فمثلا قوله:"ذهب زيد"ذهب فعل ماض، وزيد مرفوع لأنه هو الفاعل الّذي ذهب، ورفعه في الدّال لأنه آخر الاسم، وقوله: وتقول خرج الرّجلان، خرج فعل ماض، والرّجلان فاعلان ورفعهما بالألف وكسرت النون لأنها نون الاثنين[26].

6-الإيجاز: إنّ الدّاعي لتأليف كتاب الواضح، هو جعل الكتاب في مستوى الطّلاب الرّاغبين في فهم النّحو وقواعده، وأنْ يُعينهم على الضّروريّ من أحكام هذا العلم، وحتّى يحقّق الزُّبَيْدِي هدفه من ذلك، فقد ابتعد عن كلّ ما يجعل الكتاب وعْرا صعبا، بل اعتمد فيه على الإيجاز غيرِ المخلّ، وابتعد كذلك عن التّفصيل، وتعقُّبِ الوجوه، والإتيان بالآراء العديدة في المسألة[27] وإذا أردنا أن نأخذ على ذلك أمثلة، فإنّنا سنقع في حيرة أية الأمثلة نأخذ؟ وذلك لأن الكتاب يعجّ بكثيرٍ ممّا ذهبنا إليه، فمثلا باب الحال الّذي نجده في كتاب سيبويه عشرات الصفحات أو حتّى في كتابٍ غيره، فإنّنا لا نجده في كتاب الزُّبَيْدِي إلا بحثا مختصرا، يكاد يوافق ما هو موجود في الكتب المدرسيّة، فلا يوجد عنده تنكير الحال أو تعريفه، ولا تقدّمه ولا تأخّره، ولا جواز حذف عامله ووجوبه، أو حتّى متى تُحذف الحال، وما إلى ذلك من الفروع والمسائل الجزئيّة الّتي لا يُغْني ذكرها الشّيء الكثير، فهو يذكر من القضايا المهمّة والأساسيّة فقط. ومن مظاهر هذا الإيجاز يمكن لنا أن نسجّل الآتي:

أ/ الابتعاد عن الحَشْوِّ وذكر ما ليس فيه الفائدة:

المنارة للاستشارات

هذه السّمة واضحة جدًّا في الكتاب، فالزُّبَيْدِي يدخل في القاعدة النّحويّة مباشرة دون الحاجة إلى مقدّمات أو تمهيد، فيقول مثلا في أحد أبواب كتابه: "إذا أَدْخَلْتَ ما على اسمٍ فحسنت الباء في خبره، فارفع ذلك الاسم وانصب خبره، تقول: ما زيد منطلقا، فما حرف نفيٍ[28]". فالكلام السّابق هذا يعتبر قاعدةً نحويّة يصل الطّالب إليها بِيُسْرٍ وسهولة دون الحاجة إلى حشوٍ لا طائل من ورائه إلّا إضاعة الوقت والجهد، وربّما أدخل القارئ في متاهات هو في غِنًى عنها.

ب/الابتعاد عن مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين:

إن هذه الميزة التي طبعت كتاب الواضح للزبيدي، تبدو جلية واضحة، فهي الّتي دفعته إلى الابتعاد عن التّعريفات الّتي تُعدُّ مصدرا من مصادر الخلاف بين البصرة والكوفة، لذلك لم يضع تعريفا للاسم أو الفعل أو الحرف[29] وغيرها من أبواب النّحو المختلفة كالمبتدأ والخبر والفاعل والمفعول، والإعراب والمعرب وغيرها. فعندما تكلّم عن الاسم قال: "الاسم قولك: رجل وفرس وحمار وزيد وعمرو، وما أشبه هذا. والفعل قولك: ضرب وخرج وانطلق ويضرب ويخرج واضرب واسمع وما أشبه هذا. والحرف: هل وبل ونعم وما أشبه هذا"[30] وممّا يُستشفُّ من هذه الأمثلة أنّ الزُّبَيْدِي أتى على ذكر أنواع الفعل من ماضٍ، ومضارع، وأمر، دون الغوص في تعريفاتها، أو ذكر خلافات العلماء حولها، وتفصيل تلك الخلافات.

هذه السّمة التي امتاز بها كتاب الزُّبَيْدِي تكفي لأنْ تجعله من أفضل الكتب النّحويّة التّعليميّة الّتي جعلت هدفها هو تخليص النّحو العربيّ ممّا علق به من شوائب التّعريفات، والخلافات بين المدارس النّحويّة الّتي لا تكاد يخلو منها كتاب نحويٌّ قديم، حتّى إنّها استهوت أبا البركات الأنباري فألّف فيها كتابا ضخما أسماه " الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين " فجاء الكتاب بعيدًا عن مساجلات العلماء وخلافات النّحاة، فهو موجز بعيد عن التّطويل، حتّى لا يعود بالنّحو إلى مربّعه الأوّل، وبعد ذلك نجد أنفسنا بحاجة إلى شرحٍ لهذا الكتاب، وتفصيلٍ لأحكامه، وبيانٍ لقواعده. لقد ظهر هذا التّوجّه في عدمِ أخذِ الزُّبَيْدِي عن أيٍّ نحويٍّ أو لغويٍّ، وكذلك لم ينقل عن كتابٍ سبقه، بل كان يضع فيه القواعد والأحكام دون

المنارة للاستشارات

أنْ يردّ الرّأي إلى صاحبه، " وذلك لأنّ هذا الكتاب هو كتابُ نحوٍ للجمهور وليس نحو الجدل والخلاف"[31].

فَفَضْلُ الزُّبَيْدِي عظيمٌ بتخليصه للنّحو من مسائل الخلاف بين النّحاة، لأنّه كان يريد أن يصل بعلم النّحو سليما خاليّا من مسائل الخلاف إلى كلِّ طالبٍ يرغب في تعلّم النّحو على أصوله الأولى، دون أن يُتْعِب رأسه أو يُشغل فِكره في تعريفاتٍ وخلافاتٍ معرفتها وعدمه سَيّان.

ج/البعد عن التّأويل والتّقدير:

هذه الظّاهرة تدلّ بشكلٍ لا لُبْسَ فيه، على رغبة المؤلّف في التّيسير والتّسهيل، على المبتدئين من الطّلبة في دراسة النّحو؛ فهو قَدْ ابتعد عن هذه الظّاهرة، وعزف عنها، مخالفا بذلك البصريين الّذين أكثروا من استخدام هذا الأسلوب، ولعلّ هذه الظّاهرة جَعَلت الزُّبَيْدِي يميلُ إلى آراء الكوفيين، ويبتعد عن آراء البصريين؛ ومثال ذلك عندما ذهب إلى أنّ بعضَ نواصبِ الفعل المضارع تَنْصِب بنفسها، دون الحاجة إلى تقديرِ أو تأويل أنْ المضمرة؛ وهذا المثال نضيفه إلى سابقيه لِنوضّح مرّةً أخرى، تلك الرّغبة الكامنة في نفس الزُّبَيْدِي، لتيسير النّحو العربيّ، وحلِّ كثيرٍ من عُقَدِه وتذليل بعضِ مصاعبه، والأمثلة على ذلك، منتشرة ومتناثرة في كل صفحات الكتاب تقريبا.

د/ الابتعاد عن الآراء الشّاذّة:

هذه الميزة لها علاقة بالسّابقة، فالزُّبَيْدِي كان يذكر أهمّ الآراء في المسألة دون الغوص في متاهات الآراء الشّاذّة كما هو الحال في ذكره لمسألة ما المشبّهة بليس فهو قد ذكر لغة أهل الحجاز وأهل تميم[32] و لم يخرج عنهما إلى آراء شاذّة غير مفيدة، بل اكتفى بأقوى الآراء وأنصع الأدلة.

ه/ عدم الاهتمام بالعلّة النّحويّة:

من المعروف لدارس النّحو العربيّ أنَّ العِلَّة النّحويّة انتشرت بعد الجيل الأوّل من النّحاة بشكل كبير، حتى أنّ كثيرًا من العلماء أولع بها أيّما ولع، إلى درجة أنّ ابن جني دافع عنها في بابين من أبواب كتابه الشّهير (الخصائص) الأوّل (باب في الردّ على من اعتقد فساد عِلَلِ النّحويين لضعفه

المنارة للاستشارات

هو في نفسه عن أحكام العلّة) والثّاني (هذا موضع ربّما أوهم فساد العلّة وهو مع التّأمّل ضدّ ذلك).

والسّيوطي كذلك دافع عنها أشدّ الدّفاع، ونراه يهاجم الّذين يصفونها بالضّعف وهو في هذا يقول: "إذا استقريت أصول هذه الصّناعة، علمت أنّها في غاية الوثاقة وإذا تأمّلت عِلَلها عرفت أنّها غيرُ مَدخولة، ولا متسامح فيها، وأمّا ما ذهب إليه غفلة العوام من أنّ عِلل النّحو تكون واهية ومتحملة واستدلالهم على ذلك بأنّها أبدا تكون هي تابعة للوجود، لا الوجود تابعا لها فبمعزل عن الحقّ[33]"

والحقّ أنّ العصر الذي عاش فيه الزُّبَيْدِي، وألفّ فيه كتابه الواضح، كان عصرَ العلّة النّحويّة، أو الفلسفة النّحويّة، ومع ذلك فإنّنا نرى أنّ الزُّبَيْدِي قد ابتعد إلى حدٍّ كبيرٍ عن التّعليل وبيان السّبب لأحكام النّحو أو ردِّها، ربّما لأنّه عمد إلى السّهولة واليُسْر فلا يريد أنْ يُثْخِمَ كتابه بالتّعليل والعلل النّحويّة الّتي لا فائدة منها سوى التّعقيد والصّعوبة لطلبة النّحو العربيّ. وعلى الرّغم من الجهد الّذي بذله الزُّبَيْدِي ليُجانب العلّة النّحويّة وتعقيداتها إلّا أنّه وقع في عدد نزر من العلل والتّعليلات النّحويّة، والحقيقة أنّ هذه العلل كانت قريبة إلى التّعليل التّعليميّ، وليس الهدف منها –عنده – إبراز الحذق والقوّة اللّغويّة، في استنباط العلل النّحويّة، بل جاء بها من أجل خدمة قاعدة نحويّة، لذلك فقد جاءت سهلة تُشبه إلى حَدٍّ كبير العلل المعروفة لدى سيبويه والخليل وغيرهم من نحّاة المائة الثانية الّذين خلت تعليلاتهم من الفلسفة والتّعقيد[34] ومن الأمثلة على العلل النّحوية التّعليميّة الّتي ساقها الزُّبَيْدِي في كتابه، تَعليلُه عدم صرف الأسماء الأعجميّة الّتي تزيد عن ثلاثة حروف، فقد علّل الزُّبَيْدِي ذلك في بيان السّبب في عدم صرفها هو الخفّة والفرار من الثّقل فقال: "فإنْ زادت الأسماء على ثلاثة أحرف لم تنصرف في المعرفة، وانصرفت في النّكرة، وذلك نحو إسماعيل وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وجبريل وفرعون وهامان وقارون وما أشبهها من الأسماء الأعجميّة، تقول: مررت بإسحاقَ بنِ يعقوبَ، ورأيت إسماعيلَ، وقرأت سورة إبراهيمَ، وجاءني هارونُ بنُ يونسَ، تركت صرف هذه الأسماء لأنّها أسماء أعجميّة فثقل صرفها في كلام العرب"[35] فقوله– رحمه الله–فثقل صرفها في كلام العرب، توحي لنا العلّة في عدم صرفها ألا وهي الثّقل وصعوبة النّطق، ومع ذلك فهي علّة

المنارة للاستشارات

تعليميّة لا تتجاوز الهدف التّعليميّ إلى الفلسفة والمنطق، وبذلك يكون الزُّبَيْدِي حتّى في العلل التّعليميّة الّتي ذكرها لم يجانب الهدف من تأليف كتابه وهو التّيسير على الطّلبة لفهم النّحو العربيّ على أصوله الأولى البسيطة البعيدة عن التّعليل والتّعقيد والصّعوبة.

لعلّه تطواف معرفيّ حاولنا من خلاله اقتفاء آثار وبصمات الزّبيدي في خدمة النّحو، فكانت كفيلةً بأنْ تكشف لنا تميّز صاحبنا بسماتٍ فارقة جعلته يتفرّد عن علماء عصره، فالجهد الّذي بذله في تيسير النّحو وتبسيطه حتّى يستسيغه المتعلّمون دون عناء قيّمٌ في تصوّره ومنهجه. وهذا ما لا يدع مجالا للشّك بأنّه ثمرة تفكير سنوات طوال، ونتائج تجربة علمية غنيّة.كيف لا وهو الضّليع بقضايا اللّغة العربيّة وعلومها. ولا ضيْر أن ندعّم ما ذهبنا إليه باعتراف من ابن حزم يشهد فيه بطريقة الزّبيدي المبسّطة في النّحو، والتي تمكّن أيّا كان من تعلّم النّحو خاصّة في الأندلس، وهذا عندما قال بأنّ: ما في كتاب الواضح لأبي بكر الزبيدي هو الحدّ الأدنى ممّا يجب على الطّالب معرفته.

وممّا خلصنا إليه أنّ ما أضافه الزّبيدي في النّحو في كتابه الواضح هو التّأكيد على أنّ النّحو واللّغة وحدة لا تتجزّأ، الأمر الّذي جعله يتحاشى الشّواهد القديمة المألوفة والّتي أوردها العلماء الأوائل لاستنباط القواعد بينما اتّجه هو إلى تيسير النّحو بإعطاء الأمثلة من كلام التّخاطب العادي. فتمكّن من التفريق بين نحوِ العامّة ومباحث المتخصّصين وهذا بُغيةَ التّرغيب في تعلّم النّحو وتبسيطه وتيسيره ليُقبل عليه الناس على اختلاف طبقاتهم العمرية والثقافية.

قائمة الإحالات:

1- انظر ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصير الأزدي ت(403ه) –تاريخ علماء الأندلس،تاريخ العلماء و الرواة للعلم بالأندلس ،تحقيق د/روحية عبد الرحمن السويفي،بيروت 1417ه-1997م ص 366

2 –السّيوطي –جلال الدين عبد الرحمن السيوطي–بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النّحاة ج1-2،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،بيروت،لبنان (ج1–ص 84–85)

3- ينظر:الضبي ج2 ص 90،ابن خلكان ج4 ص 373.

4–انظر: السّيوطي ، بغية الوعاة ،ص34.مصدر سابق.

5–ينظر:ابن الفرضي ج2ص90.ابن خلكان ج4ص 372.

6–ابن الفرضي ج1 ص 90.ابن خلكان ج4 ص 372.

المنارة للاستشارات

7-الجذوة ص 46 بتصرف.

8-ابن خلكان، ج4 ص 372.

9-ياقوت الحموي ج6 ص 519-520.

10-الجذوة ص46. ابن خلكان ج4 ص373. شذرات الذّهب ج3 ص94، المغرب ج1 ص255-256.

11-الزُّبَيْدِي، أبو بكر: الواضح في العربية ص18، مقدمة المحقق. تحقيق عبد الكريم خليفة .الأردن :منشورات الجامعة الأردنية.

12-ينظر: شذرات الذّهب، ج3 ص94.

13-القفطي علي بن يونس، إنباه الرواة على أنباه النحاة،108/3.تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، القاهرة وبيروت، دار الفكر العربي ومؤسسة الكتب الثقافية، 1986م.

14-نفسه: القفطي.109/3.

15-خليفة، عبد الكريم: تيسير العربية بين القديم والحديث، ص47.ط1، عمان، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني،1986م.

16-عبادة، محمد إبراهيم: النحو التعليمي في التراث العربي، ص67.د ط، الإسكندريّة، دار منشأة المعارف، 1986م.

17-الزُّبَيْدِي، أبو بكر: الواضح في العربية ص18، مصدر سابق.

18-العزّاوي، رحمة نعيم: أبو بكر الزّبيدي الأندلسي وآثاره في النحو واللغة، النجف، مطبعة الآداب 1395ه/1975م، ص 163.

19-الزّبيدي، أبو بكر: الواضح في العربية، ص 86، مصدر سابق.

20-المصدر نفسه ص93.

21-المصدر نفسه-ص 37.

22-المصدر نفسه –ص 38.

23-عبادة، محمد إبراهيم: النحو التعليمي

24-العزاوي نعمة رحيم، أبو بكر الزبيدي الأندلسي وآثاره في النحو واللغة ص 162.

25-الزّبيدي، أبو بكر: الواضح في اللغة العربيّة ص 40. مصدر سابق.

26-المصدر نفسه، ص 40.

27-العزاوي، نعمة رحيم، أبو بكر الزبيدي الأندلسي وآثاره في النحو واللغة ص 157.

28-الزّبيدي، أبو بكر –الواضح في العربية ص 93. مصدر سابق.

29-المصدر نفسه ص 37.

30-المصدر نفسه ص 37.

31-العزولي، نعمة رحيم –مرجع سابق ص 162.

32-الزّبيدي، أبو بكر الواضح في العربية، ص 93. مصدر سابق.

33-السيوطي، جمال الدين: الاقتراح في علم أصول النحو: تحيقق طه عبد الرؤوف سعد.ط1.القاهرة.مكتبة الصفا.1999م. ص 45.

34-ينظر: العزاوي، نعمة رحمة، مرجع سابق ص.203

المنارة للاستشارات

35-الزّبيدي، أبو بكر-الواضح في العربية. ص 158.